أهمية الإخلاص والتقوى



د. عبدالرحمن بن سعيد الحازمي

مقالات متعلقة

تاريخ الإضافة: 5/8/2025 ميلادي - 11/2/1447 هجري

الزيارات: 252

أهمية الإخلاص والتقوى

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾[1]

تمهيد:

إن من أجَلِّ النعم على الإنسان نعمة الهداية إلى الإسلام؛ فهو صراط الله المستقيم، ومنهج حياة في كل شؤونها دِقها وجلها؛ من سَلَكَه وفق شرع الله القويم، وفهم سلف الأمة الصالح رحمهم الله فقد اتبع سبيل المؤمنين، ونال سعادة الدنيا والآخرة، ومن حاد عن سبيل المؤمنين واتبع سبيل المجرمين خاب وخسر الدنيا والآخرة.

وقد بين القرآن الكريم سبيل المؤمنين، وسبيل المجرمين، قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾[3]. قال ابن القيم رحمه الله: "فالعالمون بالله وكتابه ودينه عَرفوا سبيلَ المؤمنين معرفةً تفصيلية، وسبيلَ المجرمين معرفةً تفصيلية، فاستبانتْ لهم السبيلانِ كما يستبين للسالك الطريقُ الموصلُ إلى مقصوده والطريقُ الموصل إلى الهلكة؛ فهؤلاء أعلم الخلق، وأنفعهم للناس، وأنصحهم لهم"[4].

هناك آيات مشابهة للآية موضوع المقال، منها:

• قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[5].

• وقوله سبحانه: ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[6].

• وقوله جل جلاله: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾[7].

• وقوله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[8].

أقوال العلماء في تفسير الآية موضوع المقال:

قال ابن كثير رحمه الله: "هذا يوم القيامة، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر، فأخبر أنه لا يتحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصًاوعلى الشريعة المرضية، فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معاً، فتكون أبعد من القبول حينئذ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾[9]".

وقال أبو بكر الجزائري رحمه الله: "أي: وعمدنا إلى أعمالهم التي لم تقم على مبدأ الإيمان والإخلاص والموافقة للشرع فصيرناها هباءً منثوراً؛ كالغبار الذي يُرى في ضوء الشمس الداخل مع كوة، أو نافذة لا يقبض باليد، ولا يلمس بالأصابع لدقته وتفرقه، فكذلك أعمالهم لا ينتفعون منها بشيء لبطلانها وعدم الاعتراف بها"[10].

الملامح التربوية المستنبطة من الآية موضوع المقال:

أولاً: الآية موضوع المقال، والآيات المشابهة لها يتضح منها مدى الخذلان والحرمان وقلة التوفيق والعياذ بالله لمن حاد وابتعد عن منهج الله تعالى والتمسك بشرعه القويم، فمهما عمل في الدنيا من أعمال ظاهرها الخير والصلاح، لكن ليس له منها في الآخرة من نصيب، قال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾[11]. قال المراغي رحمه الله: "ومن كان سعيه موجهًاإلى شؤون الدنيا، وطلب طيباتها واكتساب لذاتها، وليس له همّ في أعمال الآخرة نؤته منها ما قسمناه له، وليس له في ثواب الآخرة حظ، فالأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى"[12].

ثانياً: قد يسأل سائل أن بعض الكفار لديهم أعمال خير وبر للفقراء والمحتاجين من: إطعام، وعلاج للمرضى، وبناء مساكن للمعوزين... إلخ، فهل ينتفعون بها وتكون شافعة لهم يوم القيامة؟ أقول: ابتداءً إن الله جل جلاله عدل، ولا يظلم ربك أحداً، وقد أوضح النووي رحمه الله في شرح مسلم تحت باب: **(جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا)**، قال صلى الله عليه وسلم: **"إنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطَى بها في الدُّنْيا ويُجْزَى بها في الآخِرَةِ، وأَمَّا الكافِرُ فيُطْعَمُ بحَسَناتِ ما عَمِلَ بها لِلَّهِ في الدُّنْيا، حتَّى إذا أفْضَى إلى الآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ له حَسَنَةٌ يُجْزَى بها"**[13]. وعلق رحمه الله على هذا الحديث قائلاً:" أجمع العلماء على أن الكافر الذي مات على كفره لا ثواب له في الآخرة، ولا يجازى فيها بشيء من عمله في الدنيا، متقربًاإلى الله تعالى، وصرح في هذا الحديث بأن يُطعم في الدنيا بما عمله من الحسنات، أي: بما فعله متقربًابه إلى الله تعالى مما لا يفتقر صحته إلى النية، كصلة الرحم والصدقة والعتق والضيافة وتسهيل الخيرات ونحوها، وأما المؤمن فيدخر له حسناته وثواب أعماله إلى الآخرة، ويجزى بها مع ذلك أيضًافي الدنيا، ولا مانع من جزائه بها في الدنيا والآخرة"[14].

ثالثاً: إن أساسَ قبول الأعمال الصالحة؛ تقوى الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾[15]. قال الطبري رحمه الله: "أي: الذين اتقوا الله وخافوه بأداء ما كلفهم من فرائضه واجتناب ما نهاهم عنه من معصيته"[16]. وقال محمد رشيد رضا رحمه الله: أي: "الذين يتقون الشرك الأكبر والأصغر، وهو الرياء والشح واتباع الأهواء، فاحمل نفسك على تقوى الله والإخلاص له في العمل، ثم تقرب إليه بالطيبات يتقبل منك، فالله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً"[17].

رابعاً": هناك ثلاثة شروط لقبول الأعمال الصالحة، أوضحها الشنقيطي رحمه الله بأدلتها عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[18]. وهي:

"الأول: موافقته لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله يقول: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾[19].

الثاني: أن يكونَ خالصًا لله تعالى؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[20]، ﴿ **قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾[21].

الثالث: أن يكونَ مبنيًا على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن الله يقول: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[22] فَقُيِّد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته؛ أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح"[23].

خامساً: إن إكرامَ الله تعالى للعبد بنعمة الإسلام اصطفاء، وفضل، وإحسان من رب العالمين، فكم من خليقة على وجه الأرض لم يُكرمهم الله بهذه النعمة الجليلة التي لا عدل لها، قال تعالى: ﴿ **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾[24]. قال السعدي رحمه الله: "إن من انشرح صدره للإسلام، أي: اتسع وانفسح، فاستنار بنور الإيمان، وحيي بضوء اليقين، فاطمأنت بذلك نفسه، وأحب الخير، وطوعت له نفسه فعله، متلذذًابه غير مستثقل، فإن هذا علامة على أن الله قد هداه، ومَنَّ عليه بالتوفيق، وسلوك أقوم الطريق، وأن علامة من يرد الله أن يضله، أن يجعل صدره ضيقًا حرجاً، أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، ولا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد إلى السماء"[25].

سادساً: إن النعمَ التي أنعم الله بها على عباده لا تُعد ولا تُحصى، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾[26]، ومن أجلها وأعظمها نعمة الإسلام، فالواجب على العبد الموفق أن يتذكر دائمًانعم الله عليه، ويلهج لسانه بحمد الله وشكره مع كل نفس، فالله تعالى يحب أن يُشكر، وأمر عباده بشكره، قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[27]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[28]. والشكر تعظيم لله وتقديره، ومن كمال عبادة العبد لربه جل جلاله، والشكر نفعه للعبد نفسه لأن الله تعالى غني عن عباده، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[29].

سابعاً: الواجبُ على المسلم الموفق قبل الشروع في أي عمل يتقرب به إلى الله تعالى أن يكونَ على بصيرة وعلم وفقه في الدين، حتى لا يذهب عمله في مهب الريح كالهباء المنثور، وتنطبق عليه الآية الكريمة موضوع المقال؛ قال صلى الله عليه وسلم: **"مَن يُرِدِ اللَّهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ"**[30]. قال النووي رحمه الله: "فيه فضيلة العلم والتفقه في الدين، والحث عليه، وسببه: أنه قائد إلى تقوى الله تعالى"[31]. وقال ابن باز رحمه الله يفهم من الحديث: **"مَن يُرِدِ اللَّهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ"**، "الذي ما تفقه في الدين ما أراد الله به خيراً". فالذي نال قسطًامن العلم الشرعي أقرب الناس إلى معرفة ربه عز وجل؛ فيجتهد في عبادته سبحانه بما شرع مراعيًاشروط وضوابط قبول العمل: **(الإخلاص، الاتباع، العقيدة الصحيحة)**. ولا شك لا يستوي بين من يعلم ومن لا يعلم بنص القرآن الكريم: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[32].

---

[1] الفرقان: 23.

[2] الأنعام: 55.

[3] النساء: 115.

[4] الفوائد، (ص: 157).

[5] البقرة:264.

[6] آل عمران:117.

[7] إبراهيم:18.

[8] النور:39.

[9] تفسير ابن كثير (6/ 94).

[10] أيسر التفاسير للجزائري (3/ 608).

[11] الشورى:20.

[12] تفسير المراغي (25/ 35).

[13] صحيح مسلم (4/ 2162 حديث 2808).

[14] شرح النووي على مسلم (17/ 150).

[15] المائدة:27.

[16] تفسير الطبري (10/ 211).

[17] تفسير المنار (6/ 283).

[18] النحل: 97.

[19] الحشر:7.

[20] البينة: 5.

[21] الزمر:14-15.

[22] النحل: 97.

[23] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (2/ 440).

[24] الأنعام:25.

[25] تفسير السعدي (ص: 272).

[26] النحل:18.

[27] البقرة:52.

[28] البقرة:172.

[29] لقمان:12.

[30] صحيح البخاري، حديث رقم: (71)، صحيح مسلم، حديث رقم: (1037).

[31] شرح النووي على مسلم، (7 /128).

[32] الزمر:9.
